دراسة منهجية

حول الحاجة إلى الإسرائيليات في تفسير القصص القرآنية

Harun Öğmüş
Yrd. Doç. Dr., Şırnak Üniversitesi
İlâhiyat Fakültesi Öğretim Üyesi

المدخل

لا شك أن الإسرائيليات في القصص القرآنية من المسائل المهمة المتعلقة بعلوم القرآن والتفسير. تناول كثير من الباحثين هذا الموضوعَ وبحثوا عن قيمة الروايات الإسرائيلية من حيث النقل والعقل ومدى اتصالها بالقصص التي ذكرت معها. ولذلك لا نتعرض في هذه الدراسة للنقاط التي تناولوها، ولكن نوجه النظر في البحث إلى الجواب عن هذه الأسئلة: هل نحتاج إلى الإسرائيليات في التفسير؟ هل كان المخاطبون أثناء نزول الوحي يعرفون هذه الروايات عندما سمعوا القصص؟ فهل نصيب إذا قلنا: إن العرب كانوا يعرفون أكثر القصص التي قصها القرآن وما يُذكر في التفاسير من الروايات المتعلقة بها، ولذلك اختصِرت القصص أحياناً، بل لم يُذكر إلا ما يتعلق منها بالمقصود كما قيل؟

قبل أن نبحث عن الجواب لهذه الأسئلة نتركز على مراجع الإسرائيليات وخصائص القرآن الكريم وأحوال المخاطبين في عهد النبوة، ثم نناقش حول الحاجة إلى الإسرائيليات في تفسير القصص أو عدمها جاعلين خصائص القرآن نصب أعيننا.

1. الإسرائيليات ومراجعها

الإسرائيليات جمع كلمة "إسرائيلية"، وهي نسبة إلى "إسرائيل"، مركب من إضافة "إسرا" بمعنى العبد إلى "إيل" بمعنى الله في العبرانية، أي: عبد الله. وإسرائيل اسم أو لقب ليعقوب عليه السلام على ما روي[1]. ويدل عليه قوله تعالى: **(كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة)**[2]. ويعقوب عليه السلام أبو الإثني عشر نقيباً المذكورين في القرآن الكريم باسم "بني إسرائيل."[3]

وأما المقصود بالإسرائيليات مصطلحاً فالمرويات عن أهل الكتاب – اليهود والنصارى–، بل عن غيرهما من أهل الملل الأخرى أيضاً فيما يتعلق بخلق الكون والقصص خاصة. وكل بقية من الثقافة اليهودية أو النصرانية أو ثقافة غيرهما معدودة من الإسرائيليات.[4]

إذن، إن هذه الكلمة وإن كانت تشير بصيغتها إلى ما نقل عن اليهود في هذا الموضوع إلا أن فيها تغليباً للجانب اليهودي على جانب النصارى وغيرهم من الملل الأخرى. وسبب التغليب هو أن يكون ما نقل عن اليهود أكثر مما نقل عن النصارى لكثرة اختلاطهم بالمسلمين منذ ظهور الإسلام إلى أن وصل نوره إلى حيث شاء الله أن يصل.[5]

[1] Aydemir, *Tefsirde İsrâiliyyât*, İst: Beyan Yayınları, ts., s. 29.
[2] سورة آل عمران 93/3
[3] سورة المائدة 12/5
[4] Aydemir, محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، القاهرة: مكتبة وهبة، بدون تاريخ، ص. 13-14؛ *a.g.e.*, s. 29
[5] محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مجلدان، الطبعة الأولى، بيروت: دار القلم، بدون تاريخ، 168/1.

إذا كانت الإسرائيليات هي مرويات اليهود والنصارى فيجب أن تكون لهما ثقافة أنتجت هذه المرويات. إذن، ما مصادر ثقافة هاتين الطائفتين؟

إن ثقافة اليهود تعتمد على كتابهم المقدس التوراة وشروحها والروايات التي نقلوها – على حد قولهم – عن موسى عليه السلام بطريقة المشافهة ثم دوّنوها في كتاب وسَمَّوْها بالتلمود. ولهم سوى ذلك كثير من الأدب والقصص والتاريخ والتشريع والأساطير. وأما ثقافة النصارى فتعتمد على الإنجيل كتابهم المقدس الذي يسمونه العهد الجديد والتوراةِ التي يسمونها العهد القديم. ولهم فيما عداه قصص وأخبار وتعاليم ادعوا أنهم رووها عن عيسى عليه السلام.[6]

كانت اليهود والنصارى تسكنان في أماكن مختلفة من جزيرة العرب قبل نزول الوحي، إلا أن وقت مجيئ اليهود إلى البلاد لا يعرف بالتحديد . في ذلك آراء كثيرة، أقربها إلى الصواب – فيما نرى – هو مجيئهم إليها بعد أن نفاهم بختصر – ملك بابل[7] — أو تيطس الروماني من فلسطين[8]. سكنت اليهود في يثرب وخيبر ووادي القرى وغيرها من المحافظات التي في شمال يثرب. ومن العرب من اعتنق اليهودية، منهم ملوك اليمن المسمّين بالتبابعة، و أكرهوا الناس على اعتناق اليهودية.[9] والمقصود بـ "أصحاب الأخدود" المذكورين في سورة البروج هؤلاء الملوك الذين فتنوا الناس في دينهم على رواية.[10]

ولكن اليهود مع تأثيرهم في العرب ودخول كثير من الناس في دينهم لم يكن بينهم وبين العرب فرق في اللغة والثقافة والمعاش. كانوا يتكلمون بالعربية ويلبسون ما تلبسه العرب ويعيشون كما يعيشون.[11] كان أحبارهم يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية.[12] وهذا يدل على أن ليس بينهم وبين العرب فرق إلا في الدين.[13] ومما يدل عليه أيضاً أن يكون فيهم شعراء يستشهد العلماء بأشعارهم مثل السموأل المعاصر لامرئ القيس بن حجر الكندي من شعراء المعلقات.[14] ومعلوم أن علماء النحو واللغة يحتاطون في شعر يستشهدون به ويذكرون شروطاً كثيرةً لذلك، منها أن لا تؤخذ اللغة من القبائل التي اختلطت بغير العرب.[15] واستشهادهم بشعر السموأل يدل على اعتمادهم على فصاحة لغته وبالتالي على عروبة اليهود آنذاك.

[6] محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، 1/169-170.

[7] راجع الآراء المختلفة في ذلك: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1-10، الطبعة الثانية، جامعة بغداد، 1993، 6/511-513 وما بعدها؛ Günaltay, Şemsettin, *İslâm Öncesi Arap Tarihi* (sad. Mehmet Mahfuz Söylemez, Ankara: Ankara Okulu Yayınları, 2006, s. 251

[8] محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات، ص. 15؛ رمزي نعناعة، الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير، الطبعة الأولى، دمشق: دار القلم، 1970، ص. 106.

[9] ابن هشام، السيرة النبوية (نشر مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحافظ شلبي)، مجلدان، بدون تاريخ، 1/35.

[10] ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية (نشر مصطفى عبد الواحد)، 1-4، بيروت: دار المعرفة، 1971، 4/585؛ Yıldız, Hakkı Dursun, "Arabistan", *DİA*, III, 253

[11] جواد علي، نفس المصدر، 6/531-532.

[12] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، 1-9 (خمس مجلدات)، مصر: المنيرية، بدون تاريخ، "التفسير" (سورة البقرة، 2/136)، باب: 13.

[13] جواد علي، نفس المصدر، 6/532.

[14] أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، جزآن في مجلد، الطبعة الثانية، مصر: المكتبة الأزهرية، 1927، 1/27-31؛ والحماسة الذي دونه أبو تمام من أشعار العرب كتاب يثق به العلماء حتى إذا استشهدوا بشعر منه لم يحتاجوا إلى ذكر اسم شاعره واكتفوا بقولهم "الدليل عليه بيت الحماسة". راجع. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (تصحيح محمد عبد السلام شاهين)، 1-4، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995، 1/93؛ هناك شعراء غير السموأل من اليهود. راجع: ابن هشام، 2/198، 200، 333.

[15] السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو (نشر أحمد صبحي فرات)، إستانبول: من منشورات جامعة إستانبول، 1975، ص. 27-28؛ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مجلدان، مصر: دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ، 1/211-212؛ Öğmüş, Harun, *Kur'an Yorumunda Şiirin Yeri* (basılmamış doktora tezi), M.Ü.S.B.E., 2006, s. 107-111 ؛ راجع لبعض الشعراء الذين لا يحتج العلماء بشعرهم: ابن قتيبة، أبو عبد الله محمد بن مسلم، الشعر والشعراء، مجلدان، مصر: دار المعارف، بدون تاريخ، 1/225، 238، 459-461؛ ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، 1-3، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة، 1986، 3/396-397.

إن اليهود وإن كانوا عاشوا كالعرب وتكلموا بلغتهم إلا أنه كان لهم تأثير كبير فيمن جاوروهم من العرب لكونهم أهل كتاب. ويدل على مدى تأثيرهم في العرب ما روي من أن لا تَدَع نساءُ الأنصار أزواجهن يأتونهن من أدبارهن في قُبُلِهن. ولعل سبب ذلك كان قول اليهود "من جاء امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول"[16] فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك القول فأنزل الله تعالى (**نساؤكم حرث لكم. فأتوا حرثكم أنى شئتم**).[17] وبذلك رخص الإسلام للمسلمين أن يباشروا النساء مدة الحيض سوى الجماع، وأحل لهم كل طريقة في الجماع بشرط أن يأتوهن في قبلهن[18].

ومما يدل على سعة علم اليهود واستفادة العرب منهم أيضاً أن أرسل مشركوا مكة إلى يهود يثرب يطلبون منهم مسائل ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها ويمتحنوه بها. قالت اليهود لهم: سلوه عن الروح وفتية فقدوا في أول الزمان – يعنون أصحاب الكهف— ورجل بلغ شرق الأرض وغربها – أي: ذي القرنين— على ما جاء في أسباب النزول[19].

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود، وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة. ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم عاهدهم على أن يدافعوا عن المدينة مع المسلمين[20]، ولكنهم نكثوا عهدهم في كل غزوة قاتل فيها المسلمون مشركي مكة[21]، ولذلك نُفِي بنو قينقاع بعد غزوة بدر ونُفي بنو النضير بعد غزوة أحد وقُتل رجال بني قريظة وأسِرت نساؤهم وصغارهم بعد غزوة الخندق. والذين نُفُوا من المدينة ذهبوا إلى خيبر والتحقوا بإخوانهم من اليهود واجتمعوا هناك.[22] ولما خاف النبي صلى الله عليه وسلم من خيانتهم فتح خيبر وما جاورها مما سكنوا من وادي القرى وفدك عام سبع من الهجرة بعد صلح الحديبية.[23] وهذا موجز قصة انتشار اليهودية في جزيرة العرب واتصالها بالعرب قبل الإسلام وبعده.

وأما النصرانية فكثيراً ما انتشرت بطريقة التبشير وسقوط الأسرى النصارى في أيدي العرب. ولذلك لم يكن لهم أتباع كثيرة في مكة ويثرب –المدينتين الواقعتين في شبه الجزيرة آنذاك – إلا عدد من التجار أو الأسرى نُقلوا إليها من البلاد التي عاش فيها النصارى. وأكثر النصارى الذين عاشوا في جزيرة العرب قد سكنوا في نجران، وهو موضع في جنوب الحجاز وشمال اليمن. وهم الذين فُتنوا في دينهم من قِبل ملوك اليمن المعتنقين لليهودية.[24]

لما ظهر الإسلام في مكة وفُتن المسلمون في دينهم هاجر المستضعفون منهم مرتين إلى ديار الحبشة بإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم، واستقبلهم الملك بالترحيب.[25] ولذلك جاء المدح في بعض الآيات المكية للنصارى، منها قوله تعالى على ما روي[26]: (**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم آياتنا قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة**

[16] صحيح مسلم، 1-5، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الحديث، 1991، "كتاب النكاح"، 19.

[17] البقرة 223/2 راجع سبب نزول الآية: الواحدي، أبو الحسين علي بن أحمد، أسباب النزول، بيروت: عالم الكتب، سورة بدون تاريخ، ص. 51.

[18] سورة البقرة 222/2-223.

[19] الواحدي، أسباب النزول، ص. 220.

[20] ابن هشام، نفس المصدر، 501/1، 503-504.

[21] ابن هشام، نفس المصدر، 47/2-48، 190، 238؛ وراجع أيضاً: الواحدي، أسباب النزول، ص. 69.

[22] Hamîdullah, Muhammed, *Hz. Peygamber'in Savaşları* (trc: Nazîre Erinç Yurter), İnkılâp Yayınları, ts., s. 113.

[23] ابن هشام، نفس المصدر، 328/2 وما بعدها.

[24] ابن هشام، نفس المصدر، 35/1؛ ثم استولت الحبشة للدفاع عن إخوانهم في الدين والمنع من عدوان ملوك اليمن. راجع: ابن هشام، نفس المصدر، 37/1.

[25] ابن كثير، السيرة النبوية، 10/2 وما بعدها.

[26] الزمخشري، نفس المصدر، 407/3.

السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. سلام عليكم. لا نبتغي الجاهلين)[27]

واستمر هذا الأمر في العهد المدني وجاء المدح فيهم أيضاً وفضلهم على اليهود والمشركين: (لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون: "ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين! وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين!" فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء المحسنين.)[28]

ولما انتشر الإسلام في جزيرة العرب كلها ودخل الناس في الدين أفواجاً واضطُرت كل قبيلة إلى الحلف مع المسلمين جاء أهل نجران في العام التاسع للهجرة إلى المدينة واستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد واستضافهم فيه ودعاهم إلى الإسلام، ولكنهم ناقشوه في طبيعة المسيح وأطالوا النقاش[29] فنزلت الآية التي عرفت بعدُ باسم المباهلة،[30] جاء فيها: (**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)**[31]

وعلمنا مما أسلفنا أن اليهود كانوا أكثر تأثيراً في العرب من النصارى وأن اليهود توطنوا يثرب والمحافظات المجاورة ليثرب من الشمال وأن مكة التي هي موطن نزول الوحي في البداية كانت خالية تماماً من تأثير أهل الديانتين كليهما. ومع ذلك نرى أن في السور المكية قصصاً كثيرةً عن تاريخ أهل الكتاب مثل قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل وقصة يوسف وقصة الخضر وقصة زكريا ويحيى وقصة مريم وعيسى وقصة داود وسليمان وقصة أيوب وقصة يونس وقصة بلقيس وقصة إلياس وقصة رجل مؤمن بموسى.[32]

إذا لم يكن لأهل الكتاب تأثير كبير في العرب في مكة فبعيد أن يعرف مخاطبو القرآن المكي هذه القصص التي جاءت في هذا العهد إلا نزراً يسيراً سمعوه من هنا وهناك. إذا لم يعلموا القصص فعلمهم بالروايات الاسرائيلية المتصلة بها – على ما هو المزعوم – يكون أبعد.[33] إذا كان الأمر كذلك فإن من فسّر هذه القصص بتلك الروايات يجعل القرآنَ يَقُصُّ القصص ويقصد بها الروايات. وهذا بعيد جداً. وسنفصل هذا الموضوع بعض الشيء فيما بعد، ولكن نريد قبل ذلك أن نشير إلى شيئ آخر يتعارض مع تفسير القصص بتلك الروايات. وهو بعض خصائص القرآن.

[27] سورة القصص 28/52-55.
[28] سورة المائدة 5/82-85.
[29] الواحدي، أسباب النزول، ص. 67-68.
[30] الواحدي، أسباب النزول، ص. 74-75.
[31] سورة آل عمران 3/61

[32] راجع: سور الأعراف 7/103-171؛ يونس 10/75-93، 98؛ يوسف 12/1-101؛ الإسراء 17/2-7، 101-104؛ الكهف 18/9-26، 60-97؛ مريم 19/1-38، 51-53؛ طه 20/9-98؛ الأنبياء 21/78-91؛ الشعراء 26/10-68؛ النمل 27/7-44؛ القصص 28/1-43، 76-82؛ سبأ 34/10-14؛ الصافات 37/114-132، 139-148؛ ص 38/17-44؛ المؤمن 40/23-45؛ الزخرف 43/46-56؛ الدخان 44/17-33؛ القلم 68/48-50؛ النازعات 79/15-26؛ والسور التي أشرنا إليها هنا هي التي تخطر بالبال بادئ الرأي عند الحديث عن قصص بني إسرائيل أو أنبيائهم. وهناك سور أخرى ذكرت فيها أسماء أنبيائهم أو أشيرت إلى قصصها لو ذكرناها لكانت أسماء السور أكثر. راجع مثلاً: الأنعام 6/84-86؛ إبراهيم 14/5-8؛ المؤمنون 33/50؛ الفرقان 25/35-36؛ العنكبوت 29/39؛ السجدة 32/23-24؛ فصلت 41/45؛ الجاثية 45/16-17؛ الذاريات 51/38-40؛ القمر 54/41-42؛ الحاقة 69/9-10؛ الفجر 89/10-14.

[33] ومع ذلك تشعر عبارة محمد بن حسين الذهبي بأن الثقافة اليهودية تسربت إلى الثقافة العربية قبل الهجرة عند اختلافهم إلى اليمن وغيرها من البلدان للتجارة، (محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات، ص. 16) ولكن لا نؤيد هذا الرأي، لأن تسرب ثقافة معينة بتفاصيلها إلى الثقافة العربية أثناء معاملاتهم التجارية بعيد جداً. وإن كان هناك تسرب لم يتجاوز تاجريهم إلى غيرهم. في الحقيقة حصل معظم تسرب الثقافة اليهودية إلى الثقافة الإسلامية بعد إسلام عبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما من علماء اليهود كما يبديه الذهبي نفسه. راجع: محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات، ص. 17 وما بعدها؛ وراجع أيضاً: رمزي نعناعة، نفس المرجع، ص. 110.

2. التعامل مع الإسرائيليات في تفسير القصص

لا شك أن القرآن الكريم كلام بليغ. والبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.[34] المراد بالحال "الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص، أي: إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدى به أصلُ المعنى خصوصية ما"[35] مثل كون المخاطب منكراً للحكم، وهو يقتضي التوكيد، وكون المخاطب غير منكر للحكم، وهو يقتضي عدم التوكيد، وغير ذلك.[36] لا شك أن الأحوال والشروط التي يتواجد فيها المخاطبون بالكلام من العلم والمعرفة والثقافة والحضارة ومقومات الحياة والتقاليد والمناهج وغير ذلك مما يتعلق بحياتهم وأفعالهم معدودة من مقتضى الحال. وإن لم يراعها المتكلم في كلامه لا يفهمه المخاطب ولم يتحقق المقصود من الخطاب، وهو الفهم. وليس قصد الشاطبي بـ "أمية الشريعة" غير هذا. قال رحمه الله عند حديثه عن هذا الموضوع: "أخبروا (أي: العرب) بنعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا، لكن مبرأ من الغوائل والآفات التي تلازم التنعيم الدنيوي كقوله (**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين؟ في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود**)[37] إلى آخر الآيات؛ وبين مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم، كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ما هو عندهم مألوف دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم، بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة"[38]

إذا كان القرآن الكريم لا يذكر الفواكه التي لا تعرفها العرب آنذاك مراعاة لحالهم فهل يتصور أنه يذكر قصص بني إسرائيل ويقصد بها الروايات الإسرائيلية التي يروونها؟ لا! لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم عارفاً بهذه القصص فضلاً عن أن يكون العرب عارفين بها سوى ما سمعوا عنها هنا وهناك. لأنها من دلائل النبوة كما قال الله سبحانه بعد أن قصها في عدة مواضع: (**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك. وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم. وما كنت لديهم إذ يختصمون**)[39]؛ (**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك. ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا. فاصبر! إن العاقبة للمتقين**)[40]؛ (**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليه. وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون**)[41] وهذه الآيات – ولا سيما الثانية منها – تدل صراحةً على أن حقيقة هذه القصص من أنباء الغيب للعرب مع أن منها ما هو معلوم لديهم مجملاً كما أشرنا من قبل. إذا كان الأمر كذلك فهل يصح أن نقول: إن القرآن كان يشير إلى الروايات الإسرائيلية بالقصص، ولذلك كان يوجزها؟

إذا نظرنا إلى تاريخ الوحي نرى أنه منقسم إلى قسمين: مكي ومدني. كلاهما يشتمل على القصص ولكن المكي أكثر اشتمالاً عليها من المدني.

وإذا نظرنا في القصص المذكورة في السور المكية نرى أن منها ما يتعلق بآباء العرب أنفسهم مثل عاد وثمود وإبراهيم وإسماعيل ومدين وسبأ وتبع وغيرهم، ومنها ما يتعلق بيعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل. فأما الأولون فالعرب يعرفون أخبارهم بالرواية الشفوية أباً عن جد لصلتهم بنسبهم وبلادهم. لأن عاداً قد عاشت في جنوب جزيرة العرب كما يدل عليه النص القرآني (**واذكر أخا عاد! إذ أنذر قومه بالأحقاف**).[42] واكتشف العلم الحديث بعض آثارهم في شمال الجزيرة.[43] لا يتعارض هذا الاكتشاف مع

[34] القزويني، الخطيب، تلخيص مفتاح العلوم (مع شرحه المطول للتفتازاني نشر عبد الحميد الهنداوي)، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001، ص. 153.

[35] التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، المطول (نشر عبد الحميد هنداوي)، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001، ص. 153.

[36] التفتازاني، نفس المصدر، ص. 153.

[37] سورة الواقعة 27-30

[38] الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة (شرح عبد الله دراز)، 1-4 (مجلدان)، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991، 2/60.

[39] سورة آل عمران 44/3

[40] سورة هود 49/11

[41] سورة يوسف 102/12

[42] سورة الأحقاف 21/46

القرآن الكريم لأن "الأحقاف" المذكورة في القرآن لا يُقطع بأنها اسم موضع. ويحتمل أنه قد استعمل بمعناه اللغوي، وهو "الرمال المعوجة".[44] ويؤيده ما ذكره الطبري من أنهم عاشوا في موضع قريب من الشام.[45] سواء أكانت دار عاد في جنوب الجزيرة أم في شمالها فالعرب كانوا يعرفون أخبارهم ويذكرونهم في ضروب أمثالهم.[46]

وأما ثمود فكانوا بقية عاد في أصح الأقوال.[47] كان مقرهم في موضع يسمى بـ"حِجْر" الذي يضيفهم القرآن إليه بقوله (**ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين**)[48]، وهو يقع بين المدينة وتبوك. ولم تزل آثارهم ظاهرةً هناك شاهدةً على قوتهم ومكانتهم.[49] واكتشاف العلم الحديث بعض نقوشهم في جنوب الجزيرة يدل على وصول حكمهم إلى هناك أيضاً.[50]

وأما مقر مدين قوم شعيب فكان قريباً من العقبة في شمال غرب الجزيرة.[51] وأما سبأ وقوم تبع فلا غبار أنهم من أقوام اليمن في جنوب الجزيرة. وأما إبراهيم عليه السلام فقد جاء بزوجته وابنه الصغير اسماعيل إلى مكة[52] ورفع مع ابنه بعد أن بلغ أشده قواعد البيت،[53] وبذلك صار وسيلة لتأسيس مكة. ولذلك صارت مكانة إبراهيم من العرب كبيرةً وعرفوه أباً لهم كما ذكر القرآن الكريم (**ملة أبيكم إبراهيم**)[54] وجعل الله رسالته (**كلمةً باقية في عقبه لعلهم يرجعون**)[55]

والحاصل أن العرب كانت تعرف أخبار من ذكرناهم من الأقوام لصلتهم بهم نسباً ومقراً وإن كان علمهم ببعضها بحاجة إلى تصحيح ما.

وأما الآخرون فمنهم من تعرفهم العرب مثل قصة لوط عليه السلام. لأنهم كانوا يمرون على قرى قومه المؤتفكة حين يختلفون إلى الشام للتجارة وغيرها فعرفوا بأخبارهم كما يدل قوله تعالى: (**ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء. أفلم يكونوا يرونها؟**)[56] (**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل. أفلا تعقلون؟**)[57]

وأما القصص الأخرى من قصص بني إسرائيل فلا عهد للعرب بهم لبعدهم عن نسبهم وعن ديارهم. نعم، قد يستمع بعضهم إلى أهل الكتاب في هذه القصص، ولكن كثيراً ما لا يتجاوز ما تعلموا منهم في هذا الباب شخصيات القصة مثل موسى وفرعون إلى تفاصيلها. هب أن الأنصار قد تعلموا من اليهود في المدينة بعض الشيئ في هذا الباب، لأنهم كانوا يفضلون اليهود على أنفسهم في العلم ويسألونهم عن الأحكام ويطبقون ما قالوه – مثل

→

[43] مهران، محمد بيومي، دراسة تاريخية من القرآن الكريم، 1-4، الطبعة الأولى، بيروت: دار النهضة العربية، 1988، 247/1.

[44] أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن (نشر محمد فؤاد سزكين)، مجلدان، مؤسسة الرسالة، بدون تاريخ، 213/2؛ وراجع أيضاً: الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن (نشر أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار)، 1-3، دار السرور، بدون تاريخ، 54/3؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 1-30، (15 مجلداً)، بيروت: دار الفكر، 1988، 24/26.

[45] الطبري، نفس المصدر، ج. 26، ص. 22-23.

[46] جواد علي، نفس المصدر، ج. 1، 323.

[47] النجار، عبد الوهاب، قصص الأنبياء، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة دار التراث، بدون تاريخ، ص. 79.

[48] سورة الحجر 80/15.

[49] Mevdûdî, Ebü'l-Âlâ, *Tefhîmü'l-Kur'ân* (trc: Ahmet Asar), I-VII, İst: Hilâl Yayınlar, 1995, I, 684-685.

[50] جواد علي، نفس المصدر، 329/1.

[51] Mevdûdî, *a.g.e.*, II, 2002-2003.

[52] سورة إبراهيم 37/14؛ راجع لتفصيله: جودد باشا، احمد، قصص أنبياء وتواريخ خلفاء، 1-12 (مجلدان)، إستانبول: قناعت، 1331، 9/1.

[53] سورة البقرة 125/2، 127-129؛ سورة الحج 26/22-29؛ راجع لتفصيله: البخاري، نفس المصدر، "الأنبياء"، 9؛ مهران، نفس المصدر، 159/1.

[54] سورة الحج 78/22.

[55] سورة الزخرف 28/43.

[56] سورة الفرقان 40/25.

[57] سورة الصافات 137/37-138.

عدم الإتيان من أدبار النساء في القبل والبعد عن غرفة النساء عند الحيض وغيرهما كما مر —، بل يعطونهم أولادهم لينشأوا على دينهم، دين اليهود.[58] وأما أهل مكة فليس فيها أهل كتاب سوى عدة موالٍ وأسرى لا يعتد بهم عند قريش حتى نفترض أن قريشاً كانوا يفضلونهم على أنفسهم في العلم ويسألونهم عن القصص وغيرها.

نعم، إن فيهم من ينتمي إلى الحنيفية ويعتنق بالنصرانية ويقرأ التوراة والإنجيل مثل ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل، ولكن لا نرى أنهم قد أثّروا في المجتمع بدرجة يمكن بها انتشار قصص بني إسرائيل بين أهل مكة. لأن أقصى ما يروى فيهم أنه قد اجتمعت قريش في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده وخلص منهم هؤلاء الأربعة نجياً وقال بعضهم لبعض: "تعلموا! ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم! التمسوا لكم ديناً! فإنكم – والله— ما أنتم على شيء!" فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.[59]

فليس من المعقول أن يؤثر هؤلاء الرجال وأمثالهم في ثقافة قريش حتى تنتشر بينهم قصص أنبياء بني إسرائيل والروايات المتعلقة بها وهم الذين يعترفون بأنهم ليسوا على شيء من الدين ويتفرقون يلتمسون الحنيفية أو ديناً آخر! هم ليسوا عصبةً قويةً يعتد بهم حتى يؤثروا في قومهم كما يدل عليه إخفاء أمرهم من قومهم بوضوح. ويدل عليه ما يروى عن عاقبتهم أيضاً من أن ورقة بن نوفل تنصر واستحكم في النصرانية، و عثمان بن الحويرث قدم على القيصر ملك الروم وتنصر وحسنت منزلته عنده، وعبيد الله بن جحش بقي على حاله يلتمس ديناً حتى بُعث النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وهاجر إلى الحبشة ثم تنصر هنالك ومات على نصرانيته.[60] وأما زيد بن عمرو بن نفيل فذهب إلى الموصل والشام يلتمس الدين فأخبره راهب بأن نبياً كاد يُبعث في بلده فعاد متوجهاً إلى مكة ولكن قُتل في الطريق.[61]

من أين لهؤلاء علم بالقصص وما يتعلق بها وهم يطوفون في البلدان طلباً للدين، لا يُعرف أن الذي يلتمسونه حنيفية أم دين آخر! لأن تنكير كلمة "دين" في قولهم الذي روي عنهم يدل على أن "ديناً" يلتمسونه غير الحنيفية كما يلفت النظر أن ليس فيهم من وجد الحنيفية دين إبراهيم بعد تحريفهم. منهم من وجد شيئاً ومنهم من لم يجد، وممن وجد من أرضاه ما وجده ومنهم من لم يرضه وبدّله! فلا عجب من أن لا يجدوا الحنيفية! لأنه ليس في وسعهم أن يجدوا شيئاً غير موجود! لم يبق أثر من الحنيفية دين إبراهيم حينئذ فيجدوه! لا يذكر في الكتب عما اشتملت عليه من العقائد والمناسك شيء. [62] تدل كثرة الاختلاف عنها قديماً وحديثاً على غموض أمرها. أكثر العلماء – ولا سيما الدارسون المحدثون – فيها من الأقوال المتضارب بعضها بعضاً إذا قرأها الإنسان يتعجب منها. وللمستشرقين آراء كثيرة ونظريات مختلفة فيها لا يمكن إحصاؤها هنا.[63] والذي تطمئن إليه النفس أن اللحنفاء ناس قد عاشوا قبل الإسلام ولم يرضوا لأنفسهم بالوثنية ديناً ووحدوا الله والتمسوا الدين الحق، ليس لهم كتاب ولا عبادات خاصة بهم. لم يكن انتماؤهم إلى إبراهيم عليه السلام ودينه الحنيفية غريباً، لأنهم كانوا يعيشون في بلد رفع فيه إبراهيم عليه السلام قواعد البيت مع ابنه. ولكن هؤلاء الناس ليسوا كثيرين وليس لهم أثر كبير في الجماعة، بيد أن في بعض المراجع مبالغة في ذكر أسمائهم. ليس كل من ذكر اسمه في قائمة الأحناف حنيفاً مثل قس بن ساعدة وعدي بن زيد العبادي وغيرهما – وهم نصارى – وأبي كرب أسعد الحميري وعبيد بن الأبرص وزهير بن أبي سلمى – وهم مشكوك في أمرهم—.[64]

58 الواحدي، أسباب النزول، ص. 58-59.
59 ابن هشام، نفس المصدر، 1/222-223؛ وراجع أيضاً: نفس المصدر، 1/238؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 1/164-165.
60 ابن هشام، نفس المصدر، 1/223-224.
61 ابن هشام، نفس المصدر، 1/231-232.
62 جواد علي، نفس المصدر، 6/ 449.
63 Kuzgun, Şâban, "Hanîf", *DİA*, XVI, 33-35.
64 جواد علي، نفس المصدر، 6/463.

هب أنهم كانوا يعرفون عن القصص، فكيف يمكن لهم أن ينشروها بين أهل مكة وهم شرذمة قليلة لا يعتد بهم في قومهم. يروى أن زيد بن عمرو بن نفيل ضربه عمه الخطاب لإعراضه عن دين آبائه وأخرجه من مكة وأمر شباباً من سفهاء قريش بمنعه من دخول مكة، وكان زيد لا يدخل مكة إلا سراً منهم.[65]

ثم يدل على غموض أمر الأحناف وماهية دينهم عداوة بعض منهم للإسلام – الحنيفية السمحة – ونبيه الذي ينتظرونه قبل مجيئه. فهذا أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي روي عنه أنه كان حنيفاً[66] قد قرأ التوراة والإنجيل[67] لما ظهر الإسلام عاد عدواً ألد له ورثى بقتلى بدر.[68] إذن، وعلى فرض وجود الأحناف وصحة دينهم فلا يصح تأثير دينهم في العرب وليس معقولاً انتشار قصص الأنبياء بواسطتهم بدرجة كبيرة. وإن انتشر بين أفراد معدودة منهم فلا يعبأ به، إذ لا يصح في مسلك الإفهام والفهم إلا ما يكون عاماً لجميع العرب، فأُخذوا بما يشترك الجمهور في القدرة على الفهم كما قال الشاطبي رحمه الله.[69]

إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل لقريش إلى العلم بقصص أنبياء بني إسرائيل. نعم، قد يمكن لهم أن يسمعوا أسماء موسى وداود وسليمان عليهم السلام من أهل الكتاب هنا وهناك وأن يعرفوا مَنْ هم، كما يشير النابغة الذبياني في قصيدته التي مدح بها النعمان بن المنذر إلى أن سليمان عليه السلام نبي يوحى إليه وخيَّس الجن واستعملهم في عمل المباني فأثابهم وعاقبهم:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه وما أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البريَّة فاحْدُدْها عن الفَنَد
وخيَّس الجنَّ إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصُفَّاح والعَمَد
فمن أطاع فأعْقِبْه بطاعته كما أطاعك وادْلُلْهُ على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد[70]

بل يمكن لهم أن يعرفوا عن أخبار بعض الأقوام بالإيجاز مثل قوم لوط الذين ديارهم على طريق قريش التجاري إلى الشام على ما يدل عليه القرآن الكريم –كما مر—. وأما تفصيل أخبار هؤلاء الأنبياء المرسلين إلى بني إسرائيل الذين عاشوا في الشام ومصر بعيدين عن العرب وديارهم فلا سبيل لهم إلى العلم بتفاصيل أخبارهم ألبتة. مثلاً يمكن لهم أن يسمعوا اسمي داود وسليمان عليهما السلام من أهل الكتاب ويعرفوا أنهما ملكان كبيران يملكان كل شيء يحتاجان إليه، ولكن إذا افترضنا أنهم كانوا يعرفون أيضاً أن داود قد تسور محرابه رجلان قد اختصما لديه أو أن سليمان (**عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب**)[71] ثم قال لرجاله ("**ردوها علي!" فطفق مسحاً بالسوق والأعناق**)[72]... نبعد كل البعد عن الصواب. وافتراض معرفتهم بالروايات التي تروى عن هذه الآيات أبعد. لأن السورة مكية، وليس فيها أهل كتاب سوى عدة تجار[73] لا يمكن بهم للعرب أن يعرفوا عن هذه الأخبار مفصلة. فلم يكن لهم مرجع سوى أهل الكتاب حتى يعرفوا عنهم.

[65] ابن هشام، نفس المصدر، 231/1.
[66] البخاري، نفس المصدر، "الأدب"، 90؛ مسلم، نفس المصدر، "الشعر"، 1؛ ابن كثير، السيرة النبوية، 137/1 وما بعدها.
[67] ابن قتيبة، نفس المصدر، 459/1-461.
[68] ابن هشام، نفس المصدر، 30/2.
[69] الشاطبي، نفس المصدر، 65/2.
[70] النابغة الذبياني، الديوان، (تدوين ابن السكيت ونشر شكري فيصل)، دمشق: دار الفكر، 1968، ص. 13.
[71] سورة ص 31/38-32.
[72] سورة ص 32/38.
[73] جواد علي، نفس المصدر، 511/6.

إذا كان الأمر كذلك فهل يسوغ لنا أن نقول: إن قصة داود عليه السلام في سورة ص مثلاً تشير إلى ما روي في بعض التفاسير من أنه عليه السلام قد أعجبته امرأة اوريا – وهو أمير من أمرائه – وأرسله إلى القتال وأمره بأن يتقدم الجيش حتى يستشهد ثم تزوج من زوجته، وعلى ذلك أرسل الله تعالى إليه ملائكة متمثلين له رجالاً تسوروا المحراب وقال له اثنان منهم: نحن (**خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم!**)[74] ثم يقول من فسر هذه الآية بهذه الرواية: لم يك بين الملكين خصومة ألبتة، ولكن الله بيّن لداود عليه السلام بهذا التمثيل قبح فعله.[75] لما قال عليه السلام (**لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه**) نظر أحد الملكين إلى الآخر وصعدا إلى السماء وفطن عليه السلام لخطئه واستغفر راكعاً وأناب.[76] وعلى هذا التفسير إن النعجة كناية عن المرأة كما هي شائعة في اللغة العربية[77]، وقوله (**تسع وتسعون نعجةً**) تعريض بكثرة النساء عند داود عليه السلام اللائي يمكن له الاستغناء بهن عن امرأة اوريا، وقوله (**نعجة واحدة**) إيماء إلى أن لم تك لأوريا امرأة سوى التي تزوج منها داود عليه السلام بعد استشهاد زوجها.

لما أخلت هذه القصة بمقام النبوة بهذا الشكل تحاشى بعض المفسرين عن ذكرها وحاولوا أن يجعلوها تتناسب مع الأنبياء قائلين: إن داود عليه السلام قد أعجبته المرأة وتمنى أن تكون زوجة له فقط، ولكن لم يرسل اوريا إلى القتال ولم يعرِّضه للموت[78]، أو إنه عليه السلام قال لأوريا "طلقها حتى أتزوج منها"، وكان هذا طبيعياً في عرفهم – كما كان في عرف الصحابة رضي الله عنهم، إذ روي أن من الأنصار من قالوا لإخوانهم من المهاجرين عندما هاجروا إلى المدينة "عندي زوجتان، أطلق إحداهما حتى تتزوج منها" – ولكن لما كان داود عليه السلام ملكاً كبيراً كان هذا الطلب كالأمر بالنسبة لاوريا واضطر إلى الانقياد له وطلَّق زوجته بغير طيب النفس[79]، أو إن المرأة ليست زوجة لاوريا، ولكن خطبها ثم خطبها عليه السلام وعوتب لخطبته على خطبة أخيه[80]، أو، أو...

أو هل يسوغ لنا أن نقول: إن قصة سليمان عليه السلام في نفس السورة – وهي (ووهبنا لداود سليمان. نعم العبد! إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال: إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردوها علي! فطفق مسحاً بالسوق والأعناق!)[81]— تشير إلى ما روي من أنه عليه السلام عندما شاهد بعض الخيول المعروضة عليه عشية يوم قد فاتته صلاة العصر أو فاته وِرْد له يستمر عليه كل يوم فقال: إني أحببت حب الخير —أي: الخيل – معرِضاً عن ذكر ربي حتى توارت الشمس بالحجاب – أي: بالجبال، أو الأفق – وطلب من الملائكة أن يردوا الشمس عليه حتى يصلي صلاته، ورَدُّوا الشمس وأدى عليه السلام صلاته ثم أمر فجيء بالخيل فطفق يمسح بالسيف سوقها وأعناقها مسحاً عقاباً لها بكونها سبباً لفوات صلاته أو وِرْده.[82] ومن المفسرين من يعيد الضمير المرفوع في "ردوها" إلى رجال سليمان والضميرَ المنصوب إلى الخيل كالضمير المرفوع في

[74] سورة ص 38/22-24.

[75] البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ١-5، بيروت: دار الفكر، 1985، 4/593-594؛ وراجع أيضاً: الطبري، نفس المصدر، 23/146-148.

[76] ابن الجوزي، أبو الفرج علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، ١-9، الطبعة الأولى، بيروت: المكتب الإسلامي، 1987، 7/122.

[77] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ١-15، بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ، 2/380؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس (نشر علي شيري)، ١-20، بيروت: دار الفكر، 1994، 3/501.

[78] النجار، نفس المصدر، ص. 372.

[79] الزمخشري، نفس المصدر، 4/77-78؛ الآلوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تصحيح علي عبد الباري عطية)، ١-15، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1994، 12/177-178.

[80] الزمخشري، نفس المصدر، 4/78؛ وراجع أيضاً: الآلوسي، نفس المصدر، 12/177.

[81] سورة ص 38/30-33.

[82] البغوي، نفس المصدر، 4/603-604.

"توارت" – أي: سعت الخيل وتوارت بغبارها أو بغيره من الموانع التي تمنع العين أن تبصرها كالجبال— ولا يتعرضون للشمس ولقيام الملائكة بردها بعد غروبها ولكن لا يرون بأساً بذكر بقية القصة مِن ذبحه عليه السلام الخيل عقاباً لها.[83]

فلا حاجة لنا إلى أن نسأل هنا "هل هذا الخبر يخل بمقام النبوة أو لا" لأننا لسنا بصدد عصمة الأنبياء، قد أجاب عنه الفخر الرازي رحمه الله في عصمة الأنبياء جواباً كافياً لا يحتاج إلى ضميمة أحد إليه.[84] وذكر أبو حيان الأندلسي رحمه الله في البحر المحيط رأياً يوافق مقام النبوة ورَدَّ الآراء السخيفة الأخر[85]، ولذلك لا نتعرض لها. والذي نحن بصدده هنا هو تعيين التعامل مع الروايات الإسرائيلية عند تفسير القصص القرآنية واتخاذ المنهج فيها.

وهناك قصة أخرى متعلقة بفتنة سليمان عليه السلام المذكورة في نفس السورة عند قوله تعالى (**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**)[86] اشتهرت بقصة الخاتم. ملخصها أن سليمان عليه السلام قد فتح جزيرةً وقتل ملكها وتزوج من ابنته بعد أن أسلمت على يديه، ولكنَّ حزن المرأة كان في أقصى الغاية بسبب مأساة أبيها وكانت تبكي عليه دائماً، وأمر سليمان عليه السلام رجاله بعمل تمثال أبيها لتخفيف حزنها. وبدأت المرأة تعبد هذا التمثال مع بناتها ولم يشعر به سليمان عليه السلام إلا بعد أن أخبره به آصف (رجل من الصالحين). ولما عرف سليمان به عاقبها وذهب إلى الصحراء للاستغفار. ولما عاد دخل الحمام وترك خاتمه الذي يحكم به العالم عند أمة له كعادته. ولما خرج من الحمام لم تردّ الأمة الخاتم إليه، لأن شيطاناً اسمه "صخر" قد جاءها وتمثل لها كسليمان وأخذه منها. وبدأ سليمان يطوف بين بني إسرائيل قائلاً "إني سليمان" ولكن لم يلتفت إليه أحد، بل ضربوه وظنوا أنه مجنون. وفي الأخير اضطر سليمان عليه السلام إلى الالتجاء بصيادي السمك وأخذ يعمل لهم. وبذلك مضى أربعون يوماً – وكانت هذه المدة هي المدة التي عبدت فيها المرأة تمثال أبيها –. ولما تمت هذه المدة فر الشيطان وألقى الخاتم على البحر، لأن بني إسرائيل قد أنكروا عليه أعماله وقد أخبرتهم نساء سليمان بإنه لا يغتسل من الجنابة. والتقم الخاتمَ سمك أهداه الصيادون هذا اليوم إلى سليمان عليه السلام. وبذلك حصل سليمان على خاتمه وملكه.[87] وعلى هذا إن فتنة سليمان عليه السلام المذكورة في الآية سيطرة الشيطان على ملكه مدة عبادة الصنم في بيته. وأما الجسد الذي ألقي على كرسيه فهو الشيطان الذي قد استولى على ملكه.

يبدو أن هذه الرواية موضوعة لما اشتملت عليه من الأشياء المخالفة للعقيدة الإسلامية. وهناك رواية أخرى ذكروها تفسيراً لهذه الفتنة التي فتن بها سليمان والجسدِ الذي ألقي على كرسيه، وهي أنه كان لسليمان ابن أراد الشياطين قتله مخافة أن يحكمهم بعد أبيه، ولما علم سليمان بذلك أمر الريح بحفظ ابنه في السحاب، وتوفى الله الابن وألقاه على كرسي سليمان عقاباً له لما في عمله إخلال بالتوكل على ما توهمه قصاص هذه الرواية.[88]

[83] الآلوسي، نفس المصدر، 12/188-189.

[84] الرازي، فخر الدين محمود بن عمر، عصمة الأنبياء، الطبعة الأولى، جدة: دار المطبوعات الحديثة، بدون تاريخ، ص. 75-76؛ مفاتيح الغيب، 1-30، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990، 26/180.

[85] أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، 1-10، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر، 1992، 7/154.

[86] سورة ص 38/34.

[87] البغوي، نفس المصدر، 4/604-607؛ وراجع أيضاً: الطبري، نفس المصدر، 23/156-158؛ السمرقندي، أبو الليث، بحر العلوم، 1-3، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1993، 3/136؛ الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 1-4، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995، 3/553؛ ابن الجوزي، نفس المصدر، 7/133-136؛ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، 1-21، بيروت: دار الكتب العلمية، 1993، 15/130، 132.

[88] الزمخشري، نفس المصدر، 4/90؛ ابن الجوزي، نفس المصدر، 7/134-135؛ البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مجلدان، إستانبول: در سعادت، بدون تاريخ، 2/312؛ النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (نشر مروان محمد شقر)، 1-4، الطبعة الأولى، بيروت: دار النفائس، 1996، 4/63؛ أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، 1-9، الطبعة الرابعة، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1994، 7/226.

ليست هذه الرواية أقل شبهاً بالأسطورة وأخف إخلالاً بالعقيدة الإسلامية من التي قبلها. وإن لم نُضطر إلى ذكرها لم نذكرها. فلا حاجة لنا إلى إضاعة الوقت وبذل الجهد لنعقب عليها بالشرح والنقد مع ما فيها من الضعف والوهن والفساد والمخالفة الظاهرة للعقل والشرع مثل تعليق الملك بالخاتم وتجويز تسلط الشيطان على نساء نبي من الأنبياء. لأننا لسنا بصدد نقد الروايات من حيث السند والمتن. والذي نحن بصدده هو التعامل معها في تفسير القصص القرآنيه من حيث المنهج. ولذلك نضرب عنهما صفحاً ونعود إلى ما نحن بصدده ونتساءل من جديد: فهل كان لأهل مكة عهد بهذه الروايات؟ أو هل أومأ القرآن بقوله تعالى (**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً**) إلى مثل هاتين الروايتين الأخيرتين واكتفى بهذا القدر ولم يحتج إلى التعرض لتفصيلهما بسبب أنهما معروفتان لدى المخاطبين؟ أو هل نصيب إذا قلنا: إن قصة داود مع الخصم وقصة عرض الخيول على سليمان عليهما السلام تشيران إلى هاتين الروايتين اللتين ذكرناهما من قبل؟

إذا كان جواب هذه الأسئلة بالإثبات يجب أن يعرف أهل مكة الروايات التي ذكرناها آنفاً فضلاً عن القصص. فليس لنا أن نجيب عن هذا السؤال بالإثبات مع أن أهل مكة لا يعرفون هذه الروايات —كما تدل عليه دلائل أقمناها — لما يلزم منه أن يخاطبهم القرآن حينئذٍ بما لا يعرفون، بل يلزم منه تكليفهم بفهم ما لم يذكر! وهذا غير جائز، لأنه تكليف ما لا يطاق، ويلزم منه أيضاً أن القرآن قص هذه القصص وقصد بها هذه الروايات مع أن أهل مكة لا يفهمون ما قصده القرآن. وهذا غير جائز أيضاً، لأنه ينزل القرآن منزلة كلام ساذج سخيف لا يطابق لمقتضى حالِ مَن يخاطبهم عند إيصال الرسالة إليهم. إذن، يجب أن يكون مقصود القرآن بقصص أنبياء بني إسرائيل — وهي مما لا سبيل لأهل مكة إلى المعرفة عنها تفصيلاً كما مر — فيما نص عليه بالعبارة فقط ويجب أن يتحرى فيه. على المفسر أثناء تفسيره لهذه القصص أن يفكر نفسه في مكة التي نزل فيها القرآن وأن يحل نفسه محل فرد من أفراد أهل مكة الذين خوطبوا به قبل نيف وأربعة عشر قرناً! وإذا لم يفعل ذلك وفسر القصص بالروايات التي لا يعرفها المخاطبون الأولون فرأيه يكون عبارة عن "عدم إيصال القرآن رسالة إلى المكيين عبر القصص". وهذه جرأة على القرآن لا يجدها مسلم في نفسه ألبتة.

وفي آخر دراستنا نوجز تفسير كل قصة من القصص التي سبق ذكرها مثالاً حتى يتضح منهجنا الذي اقترحناه في التعامل مع الروايات الإسرائيلية عند تفسير القصص القرآنية. ولكن قبل ذلك يجب علينا أن نشير إلى السياق الذي تُذكر فيه هذه القصص حتى يتبين لنا المقصود منها. هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها الأساسي البعث والنبوة. ولذلك تبتدأ بالقسم بـ (**القرآن ذي الذكر**)[89] — أي: الشأن والمكانة[90] والشرف والنباهة[91] —— ليدل على عظم شأن القرآن الذي جاء به صاحب هذه الرسالة. ولكن الكافرين غفلوا عنه لما استحكم فيهم كبر وشقاق (**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم**).[92] عجبوا من أن جاءهم منذر من الله لينذرهم، ولكن عجبهم أن يكون المنذر من أنفسهم، و(**يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**)[93] مثلهم أكثر من هذا. والواجب عندهم أن ينزل (**إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها**)[94] أو يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً أو يُسقط السماءَ عليهم كسفاً أو يأتي بالله والملئكة قبيلاً أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء. وليس عليهم أن يؤمنوا برُقيِّه حتى ينزِّل عليهم كتاباً يقرؤن فيه أنه قد رقى.[95] لو وجب كونه بشراً لوجب أن يكون ذا مال ومكانة بينهم! (**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!**)[96] (**أأنزل عليه الذكر من بينهم**)؟[97]

[89] سورة ص 38/1.
[90] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 1-4، الطبعة الأولى، بيروت-دمشق: دار ابن كثير، 1994، 4/32-33.
[91] أبو السعود، نفس المصدر، 7/213.
[92] سورة ص 38/4؛ وراجع أيضاً: سورة الأعراف 7/63، 69؛ سورة يونس 10/2؛ ق 50/2.
[93] سورة الفرقان 25/7.
[94] سورة الفرقان 25/7-8.
[95] انظر: سورة الإسراء 17/90-93.
[96] سورة الزخرف 43/31؛ وراجع أيضاً: سورة الزخرف 43/51-53؛ سورة هود 11/12.
[97] سورة ص 38/8.

إذن، لإنكار المشركين النبوة أسباب كثيرة، ولكن على رأسها إنكارهم على كون النبي إنساناً مثلهم وتكبرهم من أن يطيعوه وحسدهم على تلقيه الوحي.[98] والقصص في السورة ذُكرت في هذا السياق لتدل المشركين على أن داود وسليمان عليهما السلام كانا ملكين كبيرين غنيين أغنى من أهل مكة كلهم يملكان كل ما يحتاجان إليه، ولكنهما مع ذلك كانا يتواضعان لله ولا يستنكفان أن يعبداه ولا يستكبران من أن يتبعا الحق متى تبين لهما الحق، إن وقعت منهما زلة بكونهما إنسانين تابا فوراً.[99]

ولذلك بعد أن أجاب الله تعالى عن اعتراضات المشركين بأن ملك السموات والأرض وما بينهما وخزائن الرحمة – وعلى رأسها النبوة – عنده، يعطيها من يشاء، وليس لهم أن يمنعوها، وأنهم جند سيهزَم كما هُزمت الأحزاب قبلهم مِن قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة،[100] وبعد أن حكى عن المشركين المستهزئين بالنبي قولهم (**عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**)[101] أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يصبر على ما يقولون وأن يذكر عبده داود عليه السلام وعرّفه بأنه ذو الأيد، أي: القوي، وأواب: أي: رجاع إلى مرضاة الله،[102] وسخر معه الجبال للتسبيح بالعشي والإشراق – والطيرُ محشورة— وشد ملكه وأوتي الحكمة وفصل الخطاب.[103]

وبعد أن وصف داود عليه السلام بهذه الصفات الجميلة ونبه على حسن عبادته مع كونه ملكاً كبيراً ذكر قصةً له قائلاً: (وهل أتاك نبأ الخصم؟ إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على دود ففزع منهم قالوا لا تخف! خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط! إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم! وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب!)[104]

إذا كانت هذه الآيات لا بد لها من أن تقول شيئاً لأهل مكة المخاطبين بها أولاً يجب تجريدها عن الروايات التي عُلِّقت بها من بعدُ. هب أننا رجال من قريش يعيشون قبل نيف وأربعة عشر عصراً لا يعرفون عن أنبياء بني إسرائل شيئاً سوى أسماء بعض منهم فماذا نفهم من هذه الآيات؟ نفهم أن داود الذي هو عبد من عباد الله الصالحين وصفه الله تعالى بصفات جميلة في الآيات السابقة اكتسب خطأً فاستغفر ربه فغفر له ربه، ولكن خطأ داود ليس بكبير لما يدل عليه ما عقّبه تعالى بأن له عنده لزلفى وحسن مآب. إذا نظرنا في الآيات يخطر بالبال أن خطأه عليه السلام أن يحكم على المدعى عليه قبل أن يستمع إليه فوراً بغضب حصل في نفسه مما قال المدعي[105] ولما يتجردْ من تعجبه من تسور رجال أجانب محرابه الذي في قصره الملكي المحروس بجيش مدجج كما يدل عليه قوله تعالى (**فتناه**) وقوله تعالى (**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله له عذاب شديد بما نسوا يوم**

98 وقصة إبليس في آخر السورة دالة على حسدهم أيضاً والتنبيه على أن أمرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كأمر إبليس اللعين الذي حسد آدم عليه السلام على تفضيله عليه. راجع: سورة ص 38/71-85.

99 وفيها دليل على نبوته صلى عليه وسلم لما صدرت ممن لا يتلو الكتاب ولا يخطه بيمينه ولم تك له صلة بأهل الكتاب من قبل.

100 سورة ص 38/9-15.

101 سورة ص 38/17.

102 السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، إستانبول: در سعادت، بدون تاريخ، ص. 599.

103 سورة ص 38/17-20.

104 سورة ص 38/22-25.

105 الرازي، مفاتيح الغيب، 26/168-169؛ وراجع أيضاً: الزمخشري، نفس المصدر، 4/85؛ الرازي، عصمة الأنبياء، ص. 71-72؛ أبو حيان، نفس المصدر، 9/151؛ المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، 1-30 (10 مجلداً)، لبنان، دار الفكر، بدون تاريخ، 23/110؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، 1-6، الطبعة الثالثة والعشرون، بيروت: دار الشروق، 1994، 5/3018.

الحساب).[106] لا شك أن جُعل عليه السلام خليفةً في الأرض يقتضي الحكم بين الناس بالحق والعدل التام. وهو لا يحصل إلا بالاستماع إلى الطرفين. لمّا حكم عليه السلام على المدعى عليه ولم يستمع إليه علم بأن هذا الحكم خطأ وأن هذه الخصومة فتنة له فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب. وهذا الخطأ ناشئ من بشريته عليه السلام طبيعي كما أن النبي صلى الله عليه وسلم مال إلى الحكم لطُعْمَة – رجل من الأنصار – في مسألة درع سرقه ورمى به رجلاً بريئاً من اليهود. وذلك لِما سأل أهله من النبي أن يجادل عن صاحبهم وقالوا له "إن لم تفعل ذلك هلك صاحبنا وافتضح، وبرئ اليهودي" فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاناً أنه صادق في قوله فأنزل الله:[107] **(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله! ولا تكن للخائنين خصيماً!)**[108]. **(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم)**[109] وأخبره بحقيقة الأمر وقال: **(ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك. وما يضلون ألا أنفسهم وما يضرونك من شيء. وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم. وكان فضل الله عليك عظيماً)**[110] ونسيانه عليه السلام الاستماع إلى الطرفين قبل الحكم بينهما كان من قبيل ميله عليه الصلاة والسلام إلى الحكم لطعمة. ولعل الله تعالى أراد مع ذلك أن يمتحنه عليه السلام في رد فعله لما يتجرأ عليه ناس لا يعرفهم من تسور محرابه بدلاً من أن يدخلوه من الباب باستأذان من حاجبه. قد يحتمل أنهم كانوا ملائكة بدليل إسناد الفتنة إلى الله تعالى وبُعد تسور ناس محرابه عليه السلام داخلين في قصر محروس ولم يشعر بهم الجيش.[111] وقد يحتمل أنهم كانوا ناساً أرادوا به عليه السلام سوءاً، ولكن علموا أنهم لن يخلصوا إذا فعلوا ما أرادوا فعله ورجعوا عن تطبيق ما دبروه ووضعوا هناك هذه الحكاية وقصوها تخليصاً لأنفسهم. وعلى هذا إسناد الفتنة إلى الله كما في قوله تعالى **(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)**[112] ولكن هذا الاحتمال ضعيف، لأنه لا يُتصور دخول أناس أجانب في القصر الملكي المحروس وتسورهم محراب الملك ولم يشعر بهم الحراس، اللهم إلا إذا قلنا إن لهم دخلاً في هذا التدبير عليه عليه السلام. والله أعلم!

وأما قصة عرض الخيول على سليمان عليه السلام عشية يوم فعبارة عن تفقده بعض الخيول التي أعدها للجهاد في سبيل الله وذكرِه سبب حبه للخيل وأمرِه رجاله بأن يردوها عليه ومسحِه سوقها وأعناقها حباً لها. وقد يحتمل تفقدها بمسحها ليتبين له إن كان بها عيب.[113] والله أعلم!

وأما فتنته عليه السلام ففتنة امتحنه الله تعالى بها، لا نعرفها ما كانت؟ وليس علينا أن نجتهد لنعرفها! قد يحتمل أن الله تعالى ألقى على كرسيه جسداً وأراد أن يمتحنه عليه السلام في رد فعله للجسد الذي رآه فجأةً على كرسيه الملكي كما أراد أن يمتحن أباه في رد فعله لما تجرأ عليه ناس دخلوا عليه من غير الباب وبدون إذن. يروى أنه عليه السلام قال: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل "إن شاء الله" فلم يحمل منهم إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل.) قال النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده لو قال "إن شاء الله" لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون).[114] إن كان لهذا الحديث علاقة بهذه الآية فالجسد الذي ألقي على كرسيه كان هذا الولد.

[106] سورة ص 26/38.
[107] الواحدي، أسباب النزول، ص. 134.
[108] سورة النساء 105/4.
[109] سورة النساء 107/4.
[110] سورة النساء 113/4.
[111] ابن العربي، أبو بكر، أحكام القرآن (نشر علي بن محمد البجاوي)، 1-4، بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ، 1631/4.
[112] سورة الأنفال 17/8.
[113] الرازي، عصمة الأنبياء، ص. 76؛ المراغي، نفس المصدر، 118/28-119.
[114] البخاري، نفس المصدر، "الجهاد"، 23؛ وراجع أيضاً: مسلم، نفس المصدر، "الأيمان"، 25.

وقد يحتمل أنه عليه السلام مرض مرضاً شديداً وصار على كرسيه جسداً ثم أعاده الله له صحته ورجع إلى حاله القديم. وعلى هذا إن كلمة (**جسداً**) حال من مفعول (**ألقينا**) المحذوف في قوله تعالى: (**وألقينا على كرسيه جسداً**)[115] والتقدير: وألقيناه على كرسيه كجسد من ضعف جسمه.[116]

وقد يحتمل أن أخاً له عليه السلام قام بانقلاب عسكري ضد أبيه داود عليه السلام الذي قد أعلن من قبلُ أنه سيخلفه وخاف من فوز أخيه بالملك وإضاعته.[117] وعلى هذا أن الجسد الذي أُلقي على الكرسي هو أخوه الذي كالجسد لخلوه من القيم الخلقية والملكات السياسية وغير ذلك. ولكن هذا الاحتمال ضعيف لتوقف فهم الآية حينئذ على معرفة تشبث أخي سليمان عليه السلام ضد أبيه مع ما فيه إضافة ملك داود عليه السلام إلى سليمان عليه السلام من قبيل اعتبار ما يؤول إليه.

هذه وجوه ذكرها المفسرون احتمالاً واستحسناها، ولكن لا نريد أن نقول إنها هي التي فهمها المخاطبون الأولون من هذه الآية. لأن فهمهم من الآية وجهاً من هذه الوجوه يتوقف على معرفتهم به. وقد بينا أن لا سبيل إلى معرفتهم بذلك. إن أقصى ما فهموا أن الله فتن سليمان عليه السلام بإلقاء جسد على كرسيه. وهذا كاف لوصول رسالة القرآن إليهم. وهي أن الأنبياء يُفتنون كما يُفتن غيرهم من الناس، لأنهم بشر مثلهم يأكلون ويشربون ويمرضون ويصحون ويغلبون ويُغلبون ويفرحون ويحزنون ويشعرون بالأمن والقلق إلا أنهم يوحى إليهم. ومما في رسالة هذه القصة إنابة سليمان عليه السلام إلى الله مع أنه ملك عظيم قد وهبه الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده وسخر له الريح (**تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص وأخرين مقرنين في الأصفاد**)[118] ومع ذلك أنه لم يغتر بما ملكه ولم يكفر بنعمة ربه وصار عبداً صالحاً شاكراً، له عند الله (**زلفى وحسن مآب**).[119]

والحاصل أن رسالة القرآن في هذه القصص إلى قريش أن داود وسليمان ملكان كبيران يملكان كل ما يحتاجان إليه، ومع ذلك أنهما لم يبطرا بما ملكاه، إن وقعت منهما زلة صغيرة تابا إلى الله. فليس هناك قصة امرأة عشقها داود عليه السلام ولا فوات صلاة أو ورد لسليمان عليه السلام وذبحه الخيول عقاباً لها لاشتغاله بها عن صلاته ولا قصة خاتم أو حفظ ولد له في السحاب. لأن المخاطبين لا يعرفون هذه الأخبار فيشيرَ القرآن بهذه القصص إليها فيفهموها من الآيات. إذا كانت الآيات لا بد لها من أن تشتمل على الرسالة إليهم فرسالتها فيما فُهم من ألفاظها فقط، لا غير، وهي عبارة عما قلناه آنفاً.

لم يبق لنا إلا أن نجيب عن سؤال ربما يخطر ببال القارئ منذ أن أبدينا رأينا في التعامل مع الإسرائيليات في تفسير القصص. وهو: أن هذا الرأي يقتضي تجريد الروايات الإسرائيلية من تفسير القصص بحجة أن أهل مكة الذين خوطبوا بالقرآن أولاً غير عارفين بها، ولكن لم ينزل القرآن خاصاً بهم، بل تشمل رسالته الناس كلهم حتى تقوم الساعة. وفيمن جاء بعد أهل مكة من هو أفضل منهم علماً وفهماً، لأنهم كانوا يعيشون في عهد لم تنتشر فيه وسائل العلم. فكيف يصح أن يتبع الناس كلهم إلى يوم القيامة أهلَ مكة في فهم القرآن (المكي) وأن يكون فهمهم تحت نير فهمهم المحدود؟

وهذا سؤال لا غبار في حقيته بادئ الرأي، ولكن منهجنا لا يتعارض في الحقيقة مع كون رسالة القرآن شاملة عالمية ولا مع وجود ناس أفضل من أهل مكة علماً وفهماً بعدهم. لأرباب الاستنباط أن ينظروا في القرآن ويستنبطوا منه ما استطاعوا أن يستنبطوه في كل حين وفي كل مكان، ولكن بشرط مراعاة اللغة العربية ومعهود العرب ومن دون إضافة ما لا يقتضيه القرآن إليه، لأنه لا يصح أن يضاف إليه ما لا يقتضيه كما أنه لا يصح أن

[115] سورة ص 34/38.
[116] الآلوسي، نفس المصدر، 191/12؛ وراجع أيضاً: الرازي، مفاتيح الغيب، 182/26؛ القرطبي، نفس المصدر، 15/ 132.
[117] النجار، نفس المصدر، ص. 3920.
[118] سورة ص 35/38-38.
[119] سورة ص 40/38.

ينكر منه ما يقتضيه. فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه وتقوّلَ على الله وروسوله فيه.[120] وتفسير القصص القرآني – ولا سيما المكي منه – بالإسرائيليات من قبيل الإضافة للقرآن ما لا يقتضيه وطلب علمه بغير ما هو أداة له. لأن الله لم ينص على أن مقصوده من هذه القصص تلك الروايات. ولا يصح أن يقال إن في القصص إشارةً إليها، لأن المخاطبين غير عارفين بها كما بينا. وأما من راعى اللغة العربية ومعهود العرب فله أن يفسر القرآن بما وهبه الله من العلم والفهم والذكاء. إذا نظر في القرآن بعمق الرؤية يكفيه ما فهمه مما يسر الله له أن يفهمه. إن القرآن كالبحر، فبعضهم لا يستطيع إلا أن ينظر إليه من بُعد، وبعضهم يتجول في ساحله، وبعضهم يخوض فيه ولا يستخرج منه شيئاً، وبعضهم يخوض فيه ويستخرج اللؤلؤ والمرجان. **(وفوق كل ذي علم عليم.)**[121] ولكن لا يسع لأحد أن يخرج عن معطيات اللغة العربية ومعهود العرب.

لا يتصور وجود قصة في القرآن لم توصل رسالتها إلى مخاطبيها. وقد يوجد لفظ أو عدة ألفاظ لا يفهمها بعض العرب بالتحديد مثل **(أَبّاً)** في قوله تعالى **(أنا صببنا الأرض صبا ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وغضباً زيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهةً وأباً)**[122] أو **(الفاطر)** في قوله تعالى **(الحمد لله فاطر السموات)**[123] على ما روي من أن أبا بكر أو عمر سأل عن معنى الكلمة الأولى وأن ابن عباس تعلم معنى الكلمة الثانية من أعرابيين تنازعا على بئر،[124] ولكن لا تعني هذه الروايات – إن صحّت – أنهم كانوا لا يفهمون رسالات القرآن جملةً. لا شك أنهم كانوا يفهمون أن **(أَبّاً)** نعمة من نعم الله التي أنعمها عليهم ينتفعون بها هم أنفسهم وأنعامهم كما يبين قوله تعالى بعده **(متاعاً لكم ولأنعامكم)**[125] والله منزه أن ينزل كلاماً كالألغاز لا يعرفه المخاطبون. وأما تدوين علم غريب القرآن وإعرابه وما يتعلق بهما فلاختلاط العرب بغيرهم بعد الفتوحات وفشو اللحن بينهم لذلك. وهذه مشكلة انتشرت بعد عهد النزول بعشرين سنة أو أكثر، ليس لها علاقة بموضوعنا. والله أعلم!

النتيجة

أمامنا سؤال: هل يتوجه الخطاب القرآني في قصص بني إسرائيل وأخبار أنبيائهم إلى أهل مكة أم لا؟ الجواب عن هذا السؤال "نعم" بلا شك! إذن، يجب أن يقصد القرآن بهذه القصص شيئاً لإلقاء الرسالة إليهم ويعرف أهل مكة بمقصوده. وإلا لما حصل الفهم، وهو المراد. إن قلنا "إن القرآن قصد بهذه القصص الرواياتِ التي فسرها بها بعض المفسرين" يكون مقصود القرآن بعيداً عن فهم المخاطبين الأولين – وهم أهل مكة – كل البعد. لأنهم لا يعرفون هذه القصص مفصلةً فضلاً عن معرفتهم بالروايات التي ذُكرت تفسيراً لها لِما ليس لهم صلة بأهل الكتاب مثل أهل المدينة. وتعليق هذه الروايات بالقصص يُخرج القرآن عن أن يكون كلاماً بليغاً لما فيه عدم المراعاة لمقتضى أحوال المخطابين. وهذا غير جائز.

إذن، أفضل الطرق لتفسير هذه القصص أن نقف عند حد ألفاظها في تحري المقصود منها وتعيين رسالتها وأن لا نتجاوزها حتى لا نقرأ روايات وخرافات لا أصل لها بدلاً من القرآن الكريم عند تلاوة هذه الألفاظ السبحانية. وإنها – في رأينا – مما يجب أن يُعدَّ من مبهمات القرآن التي تقتضي أن نقرأها على ما هي عليه وأن لا نستنبط رسالتها إلا من نصوصها المذكورة. ففي ما ذكر ربنا بالنص درس كاف وعبرة كافية. فما لم يذكره فليس لنا حاجة إلى علمه ولم نؤمر به، بل نفوض علمه إلى الله! والله أعلم!

[120] الشاطبي، نفس المصدر، ج. 2، ص. 62.
[121] سورة يوسف 12/76.
[122] سورة عبس 80/25-32.
[123] سورة الفاطر 35-1.
[124] السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (نشر مصطفى ديب البغا)، مجلدان، الطبعة الثانية، دمشق-بيروت: دار ابن كثير، 1993، 1/354.
[125] سورة عبس 80/33.

الملخص

تناول كثير من الباحثين الإسرائيليات وناقشوا صحة علاقة هذه الروايات بالقصص من حيث النقل والعقل. في هذه المقالة نريد توجيه النظر إلى مدى معرفة المخاطبين الأولين بالقصص القرآنية وهذه الأخبار. إن كان لهذه الروايات علاقة بالقصص فلا بد للمخاطبين الأولين من معرفتهم بهذه الأخبار. وإلا لم يوصل القرآن رسالته بالقصص إليهم. نركز في دراستنا هذه على مدى معرفة المخاطبين بالقصص المذكورة في السور المكية أولاً، ثم نقترح منهجاً لتفسير القصص.

الكلمات المفتاحية: الإسرائيليات، القصص القرآنية، السور المكية، المخاطبون، التفسير.

KUR'AN KISSALARININ TEFSİRİNDE İSRÂÎLİYYATA DUYULAN İHTİYAÇ HAKKINDA BİR METOT ÇALIŞMASI

İsrâiliyyat hakkında daha önce birçok çalışma yapılmış, isrâîlî haberlerle kıssalar arasında ilgi kurulmasının doğru olup olmadığı nakil ve akıl açısından tartışılmıştır. Biz bu çalışmamızda konuya Kur'ân'ın ilk muhâtaplarının Kur'an kıssaları ve isrâîlî haberler hakkındaki bilgilerini dikkate alarak yaklaşıyoruz. Eğer söz konusu haberlerle kıssalar arasında bir ilgi varsa Kur'ân'ın ilk muhataplarının da bu haberleri biliyor olmaları gerekir. Aksi halde Kur'an, kıssalarla ilk muhataplarına mesajını vermemiş olur. Makalemizde öncelikle Mekkî sûrelerdeki kıssaların muhatapları tarafından ne kadar bilindiği üzerinde duracak, sonra kıssaların tefsiri hakkında bir metot önerisinde bulunacağız.

Anahtar kelimeler: İsrâîliyyat, Kur'an kıssaları, Mekkî sûreler, muhatap, tefsir.